# فلسفة ذبابة

قِيلَ (مَن ألّف كتاباً، فقد وضَع عقلَهُ على طبق وقدّمه للناس)، لأن الكُتبَ في حقيقتها ليست مُجرّد جمعٍ للمعلومات، ولكنها بناءٌ عقلي تَكونُ كلُ معلومةٍ فيه حجراً يستعمله المؤلف لإظهار تصاميمهِ الفكرية.
والقارئ الذي لا يتذوق عقل الكاتب لا يمكنُه بحالٍ أن يفهم الكتاب فهما حقيقيا أو ينتفعُ به إنتفاعاً كاملاً ولو أحصى كل معلومة فيه، وقد قالَ لي مرةً رجلٌ حكيم [لك عينان! فإذا قرأت فإجعل عينا على الكتاب والأخرى على الكاتب، لتتعرف بأحدهما على الآخر].
ولذا فإن طريقتي في القراءة هي أن أنظر في الكلام مرتين: لـ"أتذوقه" وأتلذذ به أولا، ثم لـ"أنتفع" به وأتقوّى ثانيا.
أما طريقتي في الكتابة فأنا لا أكتب إلا في الصباح الباكر، فإذا أردت أن أكتب في موضوعٍ أو فكرة جَمعتُ قُصَاصَاتي التي دَونتُها من قِراءاتي وتأمُلاتي حولها، ثم رتبتها وراجعتها في الليل، ثم أنام دون أن اكتب كلمة واحدة، فإذا إستيقظت وشربت قهوتي في مكتبتي شرعت في الكتابة ..
لأن العقل يَغسلُ نَفسَه بالنوم -كما يَغسلُ الإنسانُ جسده بالماء- ليَنشَطَ ويتجدد، فأشد ما يكون العقل صفاءاً في الصباح.
وأنا أحب أن تُغسلَ الأفكار وتُصفَّى قبل أن أكتبها، لتَخرُجَ إلى الدنيا حيوية مشرقة.
وفي أحد الأيام -على عادتي كل صباح- جلست في مكتبتي الصغيرة حاملاً قهوتي أكسر مرارتها بحلاوة ما أقرأ، فلا أزال أقرأ حتى أنهيها فإذا أنهيتها حملت قلمي وبدأت أكتب.
وفي ذلك اليوم جلست وقد جمعت وحولي كتبا وقُصاصات متفرقة و أخذت قلمي وتهيأت لكتابة، فإذ بِـ"ذُبابة" دخلت من نافذتي وإقتحمت غرفتي وبدأت تُحلّقُ مَزهوةً وتنظر إلى المكتبة نظرةً تَمزجُ فيها بين الشفقة والسخرية، حتى إذا إنتهت إِليَّ وقفت على قلمي ونظر في عيني وقالت [العلم نقطة كثرها الجاهلون].
فقلت: سبحان الله ذبابة تنطق!.
قالت: كل الذباب ينطق ولكنه يختار الصمت لأن في الصمتِ الحكمة.
قلت: لقد رأيت اليوم عجبا ذبابة تتكلم وتلقي المواعظ والحكم، من أنتِ رحمكِ الله ومن أين وقعتِ عليّ؟.
قالت: إني مررت بجوار دارك فرأيتك غارقا بين كتبك فأشفقتُ عليك، وأردت أن أمد يد العون إليك، بتعليمك من فلسفة الذباب ما لو عشت به لأغناك عن هذه الكتب الكثيرة.
قلت: وفيكم فلاسفة أيضا؟.
قالت : أليس يزعمون أن من الشعراء من له رِئِيٌّ من الجن يَمدُهُ في شعره، فكذلك من الفلاسفة من له حكيم من الذُبّانِ يطن في أُذُنِه فيعلمه أصول [الفلسفة الذبابية].

قلت: وما أصول هذه الفلسفة؟.
قالت: إن شئتَ أمليتُ عليك فتكتبُ ما أقول، ليُحفظ هذا العلم، وليعرف الناس "الفيلسوف الذبابي" من غيره.
قلت: نعم والله أفعل! فإن الحكمة ضَالّةُ المؤمن.

**1- قالت الذبابة:** ليس الفيلسوف عندنا من يبحث عن الخير والجمال!.
ولكن من يستطيع إستخراج الأخطاء و"إنتقاد" كل شيء، فيدخل كل بستان ليبحث عن مواضع القاذورات فيه ثم إذا وجدها ملأ الدنيا ضجيجا من أجلها، فهو لا يحفل إلا بها ولا ينادي في الناس إلا عليها، وهي عنده أعظم إكتشافاته الدالة على عبقريته وشدة ذكائه.
ولا تكتمل عنده هذه العبقرية حتى يجمع في رأسه جميع الأخطاء التي عند الناس فيصبح له [عقل قمامي] يجمع زبالات البشر وزلاتهم، فإنه عندها فقط يكون فيلسوفا عظيما.
بخلاف إخواننا من "النحل" أصحاب الفلسفة اللاهية التي تطلب النفع والجمال وتعيش في عالم الخيال ، فإذا سألتهم عن بستان من المساتين لم يخبروك إلا عن منافع رحيق أزهاره وجمال شلالاته وأنهاره، وأما ما في البستان من قبح وشر فإنهم يعرضون عنه كأنه غير موجود فلا يدنون منه ولا يدلون الناس عليه، وهذه منهم طفولية فكرية إذا قارنتها بالعبقرية الذبابية.
- فالفيلسوف الذبابي إذا سمع فِكرةً لم يبحث عن جانب (الصواب) منها ولا معنى (الجمال) المخبوء فيها، بل همه كشف عيوبها ليُظهر علو فِكره عليها ودقة نظره فيها.
- وإذا إسترجع ذِكرى تغافل عن حلوها وتذكر مُرها، وتكلم عن ألم تجاربه ولم يذكر نفعها، فالنفع والحلاوة إنما يلتفت إليهما النحل والأطفال، وكلاهما ضعيف العقل.
- وإذا أراد الناقد الذبابي تقييم علم إنسان او عمله أو ثقافة أُمة وعلومها تتبع أخطاءها، وفتش عن عيوبها وجهالاتها، وإن زل لسانه يوما بمدحها لا بد أن يستدرك بالإشارة إلى بعض عيوبها حَذرَاً أن يُفضِلَها الناس عليه!.
وأُنظر إليّ كيف آتي إلى أعظم الفرسان وأقوى الرجال وأشجع الشجعان فلا أقف إلا على جروحه ولا يعلو طنيني إلا فوق دماءه، لأكشف للناس زيفه وأفضح ضعفه وأستعلي بذلك عليه وأُظهر قوتي بين يديه.

فكذلك فإفعل إن أردت أن تكون **إنسانا ذُبابيا** ..

**2- وقالت الذبابة:** أنا لا أؤمن إلا بالمحسوسات، والعلم عندي هو العلم التجريبي وحده.
أما "السمعيات" و "الذوقيات" فهي خرافات لا قيمة لها في (العلم الذبابي) وإن آمن بها بنو البشر.
وإذا عرض عليّ أحدهم أمرا من السمعيات ولم يستطع عقلي أن يرده، أو من الذوقيات ولم يستطع قلبي أن ينكره، أكتفي بالتشكيك وأحتج بجهلي؛ ففي العلم الذبابي "الشك" عبقرية و "الجهل" حجة!.
والعلم عندي أُحَاديٌّ لا يقبل التنوع ولا التعدد، والعالِمُ الحقيقي هو الذي يضربُ العلومَ بعضها ببعض ويجعلها تتصارع لا تتكامل، وينحاز إلى بعضها دون بعض، فإنه بذلك يكون فارسا في ميدان العلم.

- فالطبيب الذبابي لا بد أن ينكر السمعيات كلها، ولا يقبل غير "المحسوسات"، فلا يبصر الأشياء إلا بعين المجهر فما أبصرته رآه وما لم تبصره جحده ولم يتهم عَمَاه فإنه بذلك فقط يكون عالِما عندنا.
- ورجل الدين إن أراد أن يكون ذُبابياً لا بد أن يُنكرَ الذوقيات، ويَحصُرَ العلمَ في "السمعيات" ، فما لم يسمعهُ نَفاهُ وقَبّحه ولم يتهم جَلَافَتَهُ وجَفَاهُ، فالأخلاقُ عنده مثلا لا يمكن إثباتُها بغير السمعيات، وبدونها لا أخلاق، والفنون والآداب والمشاعر مجرد عبث حتى تأمر بها النصوص فإذا سكتت عنها كان سكوتها عنده نفي لها وإسقاط لقيمتها!، إذ لا إعتبار عنده لفطرةِ الإنسان.
- والكاتب الذبابي لا يكون فيلسوفا ولا أديبا حتى يستهزئ بالسمعيات، ويُكابرُ الحسيات، ولا يكون له ميزان في أدبه سوى "الذوقيات" وما سواه فهو هَدَر.
ولذا تراني إذا دخلت منزلا لم يحملني على الخروج منه "إخبار" شخص لي أنه صاحب الدار فهذه سمعيات، ولا "تقاليد" الإستئذان أو "عادات" الزوار فهي ذوقيات ؛ حتى أضرب بالنعل لأن ذلك وحده هو العلم الحسي الذي أفهمه!.

فكذلك فإختر واحدا فقط من أنواع العلوم الثلاثة (الحسيات) او(السمعيات) أو (الذوقيات) دون غيره إن أردت أن تكون **عالِما ذُبابيا** ..

**3- ثم قالت الذبابة:** سر السعادة في العدمية، فلا ينبغي لعاقل أن يبحث لمعنى عن حياته، بل كل ما يلزمه فعله هو الإستمتاع بأكبر قدر من الملذات.
فأعظم الفضائل (اللذة) وأقبح الرذائل (الألم).

- واللذة في المحسوسات وحدها وما سواها فوهم، لا بد أن تنكره -إذا أردت أن تكون ذبابيا- ولو لمسته بنفسك وشعر به قلبك ودعاك إليه عقلك!.
- ومن السفه أن يُضيع المرء جهده ووقته في هذه الحياة ببناء خليةٍ أو تحمل مسؤوليات إجتماعية .
- والمبادئ تكون أخلاقية إذا كانت تزيد اللذات، أما إذا كان يصحبها أَلَم فهي غير أخلاقية،وتكون حينئذ مجرج شعارات يُخدع بها الضعفاء.
- وكل شيء سوى نفسك ولذتها فلا قيمة له ولا ينبغي تقديره، ففي العلاقات العاطفية تلذذ بالحب ولكن لا تتحمل "المسؤوليات"، وفي العلاقات الأسرية خذ الحميمية ولكن لا تسمح لأحد أن يتخل في شيء من حياتك لأن هذه "خصوصيات" فكل قيمة مهدرة عندها وليس ذلك من الأنانيات، وفي عالم الفكر لا وجود لـ"المقدسات" ولا "المُسلَّمات" ، وفي الأخلاق ما لم تضر غيرك فلك مطلق "الحريات" إن شئت أن تكون إنسانا فَكُن أو عش كأحد الحيوانات ولا يخدعنّك أحدٌ بـ(مكارم الأخلاق) و(الكرامة الإنسانية) وأَمثالُ هذه الشعارات.

فكذلك فإفعل إن أردت **السعادة الذبابية** ..

**4- وقالت:** الحقيقة المطلقة الوحيدة في هذا العالم هي [النِّسبِية].
فكل ما يدعيه الناس من حقائق ومعاني إنما هي حقائق بالنسبة إليهم، ولا يعني ذلك أنها حقيقة في نفسها.

والدليل أن "الخراءة" التي يستقبحها أهل الأرض والسماء، هي عند فلاسفة الذباب أجمل ما في الوجود.

- فالشاعر الذبابي حقا هو القادر على إلغاء خصائص الشعر كله فيما يكتب، فعَمُود الشعر يُكسر، وميزانه يُطفّف، ومعانيه تُسلب؛ ثم يُنادَى في الناس أنه الشاعر الفحل.
- والفنان الذبابي هو الذي لا يستحي أن يُخربش اللوحات، ويمزق تناسقها، ويُطلسم التصاوير، ويُلصق لها المعاني التي لا وجود لها في غير رأسه؛ ثم ينادي في الناس أن من لم يرَ هذا العبث فناً فليُراجع ذبابيته.
- والجمالُ في عين الذباب لا منطق له، ولا معايير فيه، فما أعجبك مِن مظهر فهو الجميل وإن كان مظهرَ الشياطين، وما أعجبك من ملبس فهو الجميل وإن كان من ثياب الفضائيين، فالشذوذ في الملبس والإغراب ليس تشوها و لا يستقبحه إلا إنسان رجعي له ذوق كأذواق النحلِ الذي لا يستحسن إلا التناسق والإنسجام في كل شيء ولا يبصر الجمال في التشويهِ والتنافُر لأنه صاحب ذوق بدائي إذا قارنت ذوقه بحداثة الذباب.
- وفن الطهو الذبابي هو الذي يُجرّد الطعام عن صفاته، ويقدمه في كل شكل إلا شكل الطعام، فتارة يصنعه على هيئة الآلات وأُخرى على صورة الحيوانات وثالثة على شكل الجمادات كـ"الأحذية" و "القبعات"، وهكذا على كل صورة لا توحي للناظر أنه طعام، لأن معيار الفن الذبابي هو (الشذوذ) و (الغَرائبِيّات) .

فهكذا فإفعل إن أردت أن تكون **فنانا ذبابيا** ..

**5- ثم قالت:** البطولة عندنا في الإعتراض وإثارة الزوبعات، ولا فرق عندنا إن كان هذا الإعتراض بعلم أو بجهل، المهم أن تعترض وتتكلم في كل شيء رافعا صوتك لتقول للناس (هذا أنا**!**).

- ففي السياسة الذبابية: كلما وُجِدَ نظامٌ فلا بد أن تكون له "معارضة" تنتقد كل شيء تارةً بحق وتاراتٍ بباطل المهم أن تعترض، إذ التعاون والتشارك والتأييد والتناصر كلها من صفات النحل التي يأنف الذباب عنها.
- والقضايا الإجتماعية في العقل الذبابي ليست "مشكلات" يتعاون المجتمع على حلها، ولكنها "صراعات" يتقاتل الناس عليها، فكل قضية لا بد أن يكون لها أنصار وخصوم يتصارعون كل منهم يريد أن يغلب الآخر.
- وفي العقل الذبابي لا قيمة للإختصاصات، فكل أحد له الحق أن يتكلم فيما عَلم وفيما جَهل، وأن يُبدي رأيه بكل حرية فيما لم يقرأ فيه كتابا واحدا أو يسأل عنه أحداً من المختصين، لأن إشتراط "العلم" في الثقافة الذبابية حصر للعقل وتقييد لحرية الجهل، ونحن نحترم الجهل كما نحترم العلم.

ولذا ترانا نحن الذباب نَطِنُّ على كل حال، لا يمنعنا من التعبير عن رأينا شيء، ولا يُسكت صوتنا أحد، فطنِينُنا يعلو على صوت العلم والعقل .. والحياء**!**.

فكذلك فافعل إذا أردت أن تصبح **مثقفا ذبابيا** ..

**6- قالت الذبابة:** العبقرية والتجديد عندنا ليس في الإبداع بأخذ التراث والبناء عليه بما يكمّل فائدته ويُبيّن فضله فإن هذا من فعل النحل الذي يفني عمره في جمع رحيق الأزهار ويكد ذهنه ويبذل وسعه ليستخرج منه العسل، وقد تابعهم في ذلك بعض بني الإنسان، أما الفلاسفة الذبابيون فهم القادرون على العودة إلى ما هو أعمق من ذلك وأيسر، وذلك بأخذ نفايات الأمم التي طواها الزمن وإعادة تدويرها ليحسبها من لا خبرة له فِكرا جديدا، وإنما هي نفايات مدفونه بعثتها العبقرية الذبابية.

- فقول جفاة الأعراب {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} تعيد الفلسفة الذبابية تدويره إلى [لا اله، والحياة مادّة] فتكون هذه عَظَمة وثورية فكرية بعد أن كانت وثنية بدائية .. وهكذا تفعل العبقرية الذبابية .
- وتَصوُرُ الوثنيين أن "الإله" لا بد أن يكون من جنس مادة هذا الكون وجزءا منه فيجعلونه تارة حجرا وأخرى شجرا وثالثة بشرا، يعاد تدويرها لتصبح (فلسفة مادية) يُفسّر بها كل شيء وتنويرا يُطفأ به كل جمال، حتى أن "الحب" الذي هو أشرف معاني الوجود ينقلب إلى [تفاعلات كيميائية وهرمونات] ويُجعل ذلك هو التفسير العلمي له .. وهكذا يفعل القُبح الذبابي.
- وإِلَهةُ الأرض التي كانت في الأساطير القديمة، تُعيد العبقرية الذبابية تدويرها لتصبح (الأم الطبيعة) ، وإذا كان الوثنيون القدامى قد جعلوها حجرا واحدا فالعبقرية الذبابية جعلتها الأرض كلها ونسبت إليها خَلقَ كلِ شيء .. وهكذا تفعل الوثنية الذبابية.
- وإعتقاد وثنيي العرب أن الجن بنات الله {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} ، تعيد العبقرية الذبابية تدويره ليصبح [الإله والشيطان وجهان لعملة واحدة] فيكون ذلك تحريرا للعقل البشري من الوهم والخرافة بإعادته إلى العقائد الوثنية! .. وهكذا يفعل كُفرُ الذبابة.

وقد [زعموا أن ذبابة سوداء كانت من حمقى الذِّبَّان، قُدِّرت الحماقة عليها أَبَديَّة، فلو انقلبت نقطةَ حِبر لما كُتبت بها إلا كلمة سُخْف.

ووقعت هذه الذبابة على وجه امرأة زنجية ضخمة، فجعلت تُقابِلُ بين نفسها وبين المرأة، وقالت: إن هذا لمن أدلِّ الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه، وأنه مُرسَلٌ كيف يتَّفِق على ما يتفق عبثًا في عبث، ولا ريب أن الأنبياء قد كذبوا الناس، إذ كيف يستوي في الحكمة خلقي «أنا!» وخلقُ هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقها ؟

ثم نظرت ليلة في السماء، فأبصرت نجومها تتلألأ وبينها القمر، فقالت: وهذا دليل آخر على ما تحقَّق عندي من فوضى العالم، وكذب الأديان، وعبث المصادفات، فما الإيمان بعينه إلا الإلحاد بعينه، وإلا فكيف يستوي في الحكمة وضعي «أنا!» في الأرض ورفع هذا الذِّبَّان الأبيض ويَعْسُوبَه الكبير إلى السماء؟.

ثم إنها وقعت في دار فلاح، فجعلت تَمورُ فيها ذهابًا وجِيئةً، حتى رجعت بقرة الفلاح من مرعاها، فبُهِتَت الذبابة وجَمدت فوقها من أول النهار إلى آخره، كأنها تُزاوِل عملا؛ فلما أَمست قالت: وهذا دليل أكبر الدليل على فوضى الأرزاق في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثقبتا وجه هذه البقر وإستقرتا فيه تأكلان

من شحمها فتَعظُمانِ سِمَنًا؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبابي يسمونها عينين، وأنا قَضيتُ اليوم كله فوقها أخمش وأعضُّ وألسع لأثقُب لي ثُقْبًا مثلهما فما انتزعت شعرة؛ فهل يستوي في الحكمة رزقي «أنا» ورزق هاتين الذبابتين في وجه البقرة ؟.
ثم إنها رأت خُنْفُسَاء تدِبُّ دبيبها في الأرواث والأقذار؛ فنظرت إليها وقالت: هذه لا تصلح دليلًا على الكفر؛ فإني «أنا!» خير منها؛ «أنا!» لي أجنحة وليس لها، «وأنا!» خفيفة وهي ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابة قديمة من ذباب القرون الأولى، ذلك الذي كان بليدًا لا يتحرك فلم تجعل له الحركة جناحًا.
ثم إنها أصغت فسمعت الخنفساء تقول لأخرى وهي تحاورها: إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهي فليكفر كما يشتهي؛ يا ويحنا! لِمَ لَمْ نكن جاموسًا كهذا الجاموس العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وجد من ينفخه ولم نجد؟
فقالت الذبابة: إن هذا دليل العقل في هذه العاقلة!، ولَعَمْرِي إنها لا تمشي متثاقلة لأنها بطيئة مرهَقةٌ بِعجْزِها، ولكن لأنها وَقُورٌ مُثْقَلَةُ بأفكارها، وهي الدليل على أني «أنا» السابقة إلى كشف الحقيقة !.
وجَعَلتِ الذبابة لا يسمع من دندنتها إلا، أنا، أنا، أنا، أنا ... من كُفْر إلى كفر غيره، إلى كفر غيرهما؛ حتى كأن السموات كلها أصبحت في معركة مع ذبابة.
ثم جاءت الحقيقة إلى هذا الإلحاد الأحمق تسعى سعيها؛ فبينا الذبابة على وجه حائط، وقد أكلت بعوضة أو بعوضتين، وأعجبتها نفسها، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها، دَنَت بطَّة صغيرة قد إنفلقت عنها البيضة أمس، فَمدّت منقارها فالتقطتها.
ولما إنطبق المنقار عليها قالت: آمنت أنه لا إله إلا الذي خلق البطة !] "وحي القلم للرافعي: 2/307".

## خاتمة

مما جاء في حكمة الأوائل قولهم:
[كن كالنحلة، ولا تكن كالذبابة]!
وهذه الكلمة تشرق كالشمس في سماء "العلم" و "العقل" و "الذوق" تُذكّر الإنسان في كل ميدان من ميادين الحياة أن يبحث عن النفع والجمال، وتُحذّره من السقوط في وَحلِ الذبابية.
فكُن النحلة .. ولا تَكُن الأُخرى